عندما سرنا إلى الجبل ليلاً



تأليف : شريف الراس ◻ رسوم: حسام عبد المحسن

سلسلة "أنا أخبركم" (٣)



عندما سرنا إلى الجبل ليلاً

شريف الراس



الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ١٩٨٠



أنا
أبي
مجاهد
أمي

ليلة عاصفة

مَطَرٌ ... مطرٌ ... مطرٌ ... وأنا في فِراشي أَرتجِفُ تحتَ الغطاءِ ، وأنظرُ إلى الشّمعةِ الصغيرةِ عندَ حافَّةِ النافذة . والنافذةُ مغلقةٌ جيداً . ومن خلفِها ينهَمِرُ المطرُ في الشارعِ المُظلمِ هذه الليلة ... وأصواتُ المزاريبِ ، وهَزيمُ الرَّعْدِ ، وانفجاراتُ الصواعِقِ كأَنَّها دَوِيُّ قنابلَ هائلةٍ تنفجِرُ فوقَ سطحِ البيت .. مِن المُؤَكَّدِ أنَّ كلَّ أهلِ مدينتِنا ليسوا نائمينَ هذهِ الليلة .

أُمّي أيضاً ليست نائمة .. من تحتِ طرفِ الغطاءِ كانَتْ عيناها تَنظرانِ إلى سقفِ الغُرفة .. ساكتة .

أمّا أبي فَعيناهُ مغمضتانِ ، لأَنَّهُما هكذا مغمضتان دائماً . فهو كَفيف . يقولونَ أَعْمَى ... كانَ في فِراشهِ ساكتاً صامتاً . لكنَّه كان يتقلَّبُ باستمرارٍ وَيُتَمْتِم :

ـ نحنُ أَقوى مِنْهُم .

أنا أحبُّ أبي كثيراً ، ولا أظنُّ أنّ في الدُّنيا رجلاً أذكى منهُ فهو يحفظُ القرآنَ الكريمَ غيبا . ويحفظُ أحاديثَ نبويةً شريفةً كثيرة . ويُحِبُّ أن يتغنَّى بقصائدِ المُتنبّي الجميلة . وهو معجبٌ بأبي العلاءِ المعرّي كثيراً .

والناسُ يحبّونَ أبي ويحترمونَه . ويقصدونَهُ في استِشاراتٍ غريبةٍ لا علاقةَ لها بشؤونِ الدينِ أو الشِّعر ، وإنّما يأتيهِ الواحدُ منهم مُخْفِياً تحت عباءَتِهِ بندقيةً عتيقةً ويقولُ له :

ـ يا عَمِّي الشيخ درويش أرجوكَ أن تُقَدِّرَ لي ثَمنَ هذهِ البندقية ..

وما أن يتحسَّسَ أبي قطعةَ السّلاحِ بأصابعهِ حتى يعرِفَ نوعَها ، واسمَها ، ومحاسِنَها ، وعيوبَها ، ويُقَدِّرّ ثمنَها المناسِبَ الذي يُرضي البائِعَ والشاري .

سألتهُ ذاتَ مرَّة :

ـ لماذا يشتري هؤلاءِ الناسُ أسلحةً ؟ ..

قال :

● ليتبَّرعوا بها للمُجاهِدين .

ـ أيُّ مُجاهدِين يا أبي ؟

● هناكَ في الجبلِ الغربيِّ مع الشيخِ صالح العليّ .. مجاهِدُونَ من أبناءِ شعبِنا .. إنّهم يقاتلونَ عساكرَ

الفرنسيّين .

ـ لماذا يقاتلونَ عساكرَ الفرنسيّين ؟

● لأنّهم أعداؤنا .

ـ لماذا هُم أعداؤنا ؟

● لأنّهم يَحتلُّون بلادنا .

ـ لماذا يحتلُّ هؤلاءِ الأجانبُ بلادِنا ؟

● ظُلماً وعدواناً ... في أواخرِ عام ١٩١٨ ، أي قبل حوالي سنتين ، نزلَتْ قُوّاتُهم المُعتديةُ في ميناءِ اللاذقية .. ومنذُ اللحظةِ الأولى تَصدّى لهم شعبُنا العظيمُ بالسّلاح . دخلوا بلادَنا بالقوّةِ . إذنْ يجبُ أنْ نَطردَهُم بالقوة .. أليسَ كذلكَ يا محمود ؟

فجأةً دوّتْ صاعقةٌ قويّة وهدرَتْ رعودٌ متَفَجِّرة . ومن بينِ شقوقِ خشبِ النافذة المغلقَة ، لمعَ برقٌ ساطِع . والمطرُ ازدادَ ، واصواتُ المزاريبِ علَتْ ، والليلُ مُخيفٌ ، وصوتُ الصاعِقَةِ بدا لي وكأنَّهُ انفجرَ فوق سطحِ بيتِنا تماماً . فانكمشْتُ تحت الغطاءِ أكثر . لكنّني تخوَّفْتُ من أن تكونَ الغرفةُ الثانيةُ قد هَوَتْ فوقَ رأسِ « غَنْدورَةْ » حِمارةِ أبي الذكية ، التي لا تتيهُ أبداً وتعرفُ كيفَ تعودُ بأبي إلى البيتِ من أيِّ مكانٍ في المدينَة .

همْمتُ أن أقومَ فاحملَ الشمعةَ وأذهبُ لأتفقَّدَ « غندوره » .

آلمَني أن أتصوَّرَ أنَّها تتعذَبُ تحتَ الرُّكام. لكنّني فوجِئْتُ بصوتِ أبي يقول:

ـ الأولادُ مثلُكَ يا محمود ناموا مِنْ زمان.

لم أقلْ شيئاً...

كيف عرفَ أبي أنّني لا أزالُ ساهِراً؟ رغمَ أنه لا يَراني... فظيعٌ... ذكاؤُهُ خارِق... ذاتَ مرّة أرادَ أن يُجَرِّبَ إبرةَ مسدَّسٍ عَتيق، وكنّا في السوقِ، وعساكرُ الفرنسيّين كثيرونَ. فقال لي:

ـ خذْني إلى الجامع يا محمود.

ووضعَ يدَهُ على كتِفي ومشينا. لم يكنْ أبي يحملُ عكّازا... فانا عكازه...

وعندَ بابِ الجامعِ قالَ لي:

ـ إنتظرني هُنا...

ثم دخلَ إلى الجامعِ وتسلَّلَ إلى المئذنةِ وأغلقَ بابَها عليه. وبعد لحظاتٍ سمعْتُ صوتَ طلقةٍ ناريَّة. فهاجَ السوقُ وماج. وركضَ العساكرُ الأجانبُ الذّين يكرهُهُم أهلُ مدينَتِنا كرهاً شديداً. وصاروا مثلَ المجانينَ يفتشونَ كلَّ الناسِ، ويشتمونَهُم بكلماتٍ فرنسيةٍ لا أفهمُها. أمّا أبي فقد عادَ إليَّ ووضع يدَهُ على كتفي ومشينا. وحين وصلنا إلى البيت أعطى المسدَّسَ لأمِّي لتخفيهِ وهو يقول:

ـ إنه مسدّسٌ ممتاز.

فقلت :

ـ أبي ... إنّكَ تعرِّضُ حياتَكَ للخَطر .

دغْدَغَ شعري بيدِه وقال :

ـ يا محمودَ يا ولدي إذا آثَرَ كلٌّ مِنّا سلامَتَهُ الشخصيةَ فمن يُناضِلُ لإنقاذِ وطنِنا ؟

قالَتْ أمّي :

ـ هذا كلامٌ كبيرٌ على الطفل .

فقالَ أبي :

ـ محمود لم يَعُدْ طِفلاً .. لقد كادَ يتجاوَزُ سنَّ الثانيةِ عشرة ..

ثم سألني :

ـ هل وضَعْتَ العلَفَ لغندورةَ ؟



ليلة الضبع

صوت يدٍ تَدُقُّ على بابِ الدار .

قلتُ :

ـ سمعتُ صوتَ يدٍ تقرعُ الباب .

قالت أمّي :

ـ هذا صوتُ الرعد . مستحيلٌ أن يقصدَنا أحدٌ في هذا الوقتِ المتأخِّرِ من الليلِ وتحت المطرِ والمزاريب . هذه « ليلةُ الضَّبْعِ » فمَنْ يخرجُ من بَيته ؟

قال أبي :

ـ لا تتوهَّموا .. هذه غندورة تضرِبُ بحوافرِها على بابِ غرفتِها .

هكذا اعتادَ أبي أن يُسمّي حمارَتنا عندما يتحدَّثُ عنها . ما سمعتُه مرةً يقولُ مثلاً « هل سقيتَ الحمارةَ يا محمود ؟ » وانّما يسأل : « هل سقيت الغندورة يا محمود ؟ » .. أو يقول

لي « اعتنِ بالغندورة يا ولدي وارفق بها ، فهي حيوانٌ لطيفٌ ونادرةُ المثالِ بذكائِها » .

وهكذا فإن كلَّ الناسِ يتحدثون عن غباءِ الحميرِ إلّا أبي ، فقد كان يؤكِّدُ أن الحمارَ الحقيقي هو من يتعاونُ مع الأجنبيّ ضِدَّ شعبِه . أمّا غندورة فهي ذكيّةٌ تماماً . كان يعتزُّ بها كثيراً وكان يعطف عليها ويوفِّرُ لها أحسنَ الأعلاف . بل إنَّهُ صنعَ لها سرجاً جميلاً كلَّفَهُ الكثيرَ من المال . لأنه يشبهُ سروجَ الخيلِ العربيةِ الأصيلةِ الموجودة بكثرةٍ في بلدَتِنا .

كنّا أحياناً نركبُ الغندورة أنا وأبي ، ونسافِرُ إلى القُرى القريبَة . وكانتِ الغَندورةُ تجري بِنا بينَ الحقولِ سريعةً فأقول لأبي بأنّها تشبهُ فرساً من تلكِ الأفراسِ الجميلةِ التي تشتركُ في سباقِ عيدِ الرّبيع .

وتظلُّ الغندورةُ تركضُ بِنا ولا تتعبُ ، وأذُناها الطويلتانِ منتصِبتَانِ أمامي ، إلى أنْ نصلَ إلى القريةِ المقصودة . فيسرعُ الفلاحوّن للترحيبِ بأبي ويأخذونَهُ إلى صدرِ المجلسِ . وهو من لحظةِ الوصولِ يوصيَهم بالعنايةِ بالغندورة ويقول لهم ممازِحاً « لقد أصبحَتْ فرداً من العائلة » فيضحكون .

مرَّةً واحدةً تعبَتِ الغَندورة في الطريقِ الطويلِ فتباطأتْ في سيرِها . كنّا قاصدينَ قريةَ بعيدةً لم نصِلُ إليها إلّا عندَ غيابِ الشّمسِ .. وكانت بيوتُ القريةِ مبنيَّةً فوقَ تلٍّ كبيرٍ ،

وكلُّ ما حولَها حقولٌ وبساتين . فسألتُ أبي :

ـ هل هذا هو الجبلُ الذي يقاتِلُ فيه المُجاهدون ؟

ـ لا يا ولدي ... فحتى نصل إلى الجبلِ الغربيِّ يجبُ أن نمشيَ عدةَ أيامٍ .

قلتُ :

ـ كم أحبُّ أن أزورَ الجبلَ وأعيشُ بينَ المجاهِدين ، وأتعلَّمُ كيفَ أطلقُ النارَ على العدوِّ .. بو.. بووو .



فتيان يعرب

إنتبهْتُ إلى أنَّ الشمعةَ كادَتْ تنطفئُ. لقد أوشكَتْ تنفَدُ. وكان أبي لا يزالُ متمدداً في فراشِهِ، وكانَتْ عينا أمّي من تحت الغطاءِ، مستمرتينِ في النظرةِ الجامدَةِ نحوَ السقفِ المُعْتِم. وكان قصفُ الرعدِ قد تلاشى، لكنَّ صوتَ المطرِ مستَمِر.

قلتُ:

ـ هل عندَنا شمعةٌ ثانية؟

لم أسمع جواباً. وبعد لحظات قال أبي:

ـ ما لكَ لا تنامُ يا ولدي؟.. ما الذي يُؤرِقُكَ ويشغلُ بالَك؟

فقالت أمّي:

ـ يُشْغلُ بالَهُ ما يشغلُ بالنَا جميعاً... إبنُ الجلاغي ورفاقه.

تنهدَّتْ أمّي بِحرقَةٍ ، ثمَّ تابعَتْ :

ـ اللهمّ أنقِذْهُم يا ربُّ ... فأنتَ أقوى من هؤلاءِ المستَعْمِرين الظالمين .

ثم نهضَتْ ففتحَتِ الصّندوقَ واخرجَتْ منهُ شمعةً جديدةً وأشعلَتْها وعادَتْ إلى فراشِها وهيَ تقول :

ـ يا حسرَتي عليهم ... خمسةُ رجالٍ أبرياءَ اعتقلوهم ، بتهمةِ أنَّهُم يُزَوِّدون ثُوّارَ الجبلِ بالاسلحة ، والطاغيةُ « مايك » المستشارُ الفرنسيُّ الذي يحكُمُ مدينَتَنا بالحديدِ والنارِ ، قرَّرَ إعْدامَهُم غداً . أَكيدٌ أنَّ كلَّ الأهالي قَلِقونَ ساهِرون الليلة .

تحرَّكَ أبي في فراشِهِ ثمَّ قال :

ـ لكنَّ عَدَدَهُم سبعة ... سِتَّةٌ من مدينتِنا وشابٌ من الجَبَل ، شاعرٌ إسمُه بَدَويّ الجبل .

فسألتُ غيرَ مصدِّقٍ :

ـ بدويُّ الجَبل ؟

كان من عادَةِ أبي أن يُرَدِّدَ اشعارَ المتنبّي وأبي العلاء المعرِّي دائماً ... ولكنَّهُ صارَ في الآونةِ الأخيرةِ يتغنّى بقصائدَ جديدةٍ حَفِظْتُ منها :

لَئِـنْ أُطْفِئَتْ يا مَيُّ نـيرانُ يَعْـرُبِ

هَـوَاناً فـإنّا ، سَوفَ نُوقِدُها إنـَّـا

ولا بُـدَّ مِنْ يَـومٍ أَغَـرَّ مُحَجَّـلٍ

تَطيرُ الجِبـالُ الرّاسِيـاتُ به عِهْنـا

يُصافِـحُ فيهِ قائِـمَ السَّيفِ خالـدُ

فَيَضْرِبُ حتى يُكْسَرَ السَّـيفُ أو يُحْنَى

وكـم في بُطونِ اليَعْرُبِيَّـاتِ خالِـدُ

سيُرْجِـعُ ظهرَ الأرضِ من حَنَـقٍ بطنا

كان أبي معجباً كثيراً بقصائِدِ هذا الشاعرِ الشاب ، ويتمنّى أن يلتقي بهِ ويتعرَّفَ إليه ... وها هو يُفْجَعُ اليومَ إذْ يسمعُ بأنّه بين المعتقلين السَّبعة ، الذّين قرَّرَ الطاغيةُ « مايك » إعدامَهم صباحَ الغَد .

رفعْتُ رأسي من تحتِ الغطاءِ وسألتُ :

ـ إذا استْمرَّ المطرُ غزيراً هكذا في الصباحِ ، فهل يُنَفِّذون فيهم حُكْمَ الإعدام ؟

قال أبي :

ـ وما علاقَةُ المطرِ بالموضوع ؟

قلتُ :

- تتبلَّلُ ثيابُهم تحتَ المطر .

ضحك أبي ثم قال :

- ما أطرفَ كلامَكَ يا محمود ! ...



زائر من الجبل

في تلكَ اللحظةِ سمِعْنا صوتَ نقراتِ إصْبَعٍ على خَشبِ النافذة ... هذهِ المرة الصوتُ أكيد ... كانَتْ نقراتُ الإصبعِ على خشبِ النافذةِ ، نقراتٍ موزونةً على إيقاعٍ معيّن . ما أن سَمِعَها أبي حتى قال :

ـ إفتحوا البابَ ... هذا دِرْباس .

فرحتُ عندما سمعتُ اسمَ دِرْباس .. فهذا الرّجلُ الجَبليُّ الضَّخمُ صديقُ أبي ، وأنا أحبُّه .

قعدتُ في فِراشي وتَلَفْلَفْتُ بالغطاءِ ، بينما نهضَتْ أمّي وتغطَّتْ بفروةِ أبي الكبيرةِ ، المصنوعَةِ من جُلودِ الخِرافِ الناعمَة ، وخرجَتْ إلى صَحْنِ الدارِ لتفتحَ الباب .

أمّا أبي فقد جلسَ في فراشِهِ قَلِقاً ، وهو يُتَمْتِمُ :

ـ اللّهُمَّ اجْعَلْهُ خيراً ...

قلتُ :

ـ تُرى ما الذي جاءَ بالعمِّ دِرْباس في مثلِ هذهِ الليلةِ العصيبَة ؟

قال أبي :

ـ هذا بدلاً من أن تفرَحَ بوصولِ « الهبُّول » ؟

« والهَبُّول » اكلةٌ لذيذةٌ أحبُّها كثيراً . إنّها تينٌ مجَّفَفٌ بَرَعَ أهلُ الجبلِ الغربيِّ في صُنْعِهِ على شكلِ كُراتٍ مَضْغوطَة . كلُّ كرةٍ بحجمِ جوزةِ الهندِ وبلونِها أيضاً . لكنَّكَ حين تَقْلَعُ كُتلةَ الهَبُّول ، تجدُ قلبَها الطَرِيَّ أشقرَ شهيّاً : تينٌ مهروسٌ على بعضِه ، حلوٌ ولذيذٌ جداً . وبذورُ التينِ الصفراءُ الصغيرةُ تُطَقْطِقُ تحتَ الأضراسِ كأنّها حبّاتُ سُكَّر ...

والعمُّ دِرْباسٌ ما زارَنا مرةً إلّا وفي يدهِ سلّةُ هَبُّول . ما عدا أول مرّة . فقد جاءَ يومَذاك وهو يحمِلُ رسالةً مُخبَّأةً في عُبِّهِ ، لم يُبرِزْها لأبي إلّا عندما استوثَقَ من خُلُوِّ بيتنا من أيِّ إنسانٍ غريب ... وكانَ أبي يومذاك مُتخَوِّفاً منهُ أيضاً . إذ أن للمستَعْمِرين جواسيساً كان أبي يُسَمِّيهم « خَنَازير » . لكنَّ الرجلَ الغريبَ استأذَنَنا في الغيابِ ساعةً ثمَّ يعودُ لأَخْذِ الجواب . فأمرني أبي بفَضِّ الرسالةِ وقراءَةِ ما فيها ... قلتُ إنها من رجلٍ اسمهُ صالح العلي . وهيَ مكتوبةٌ بخطٍّ جميلٍ واضِح .

فقال أبي :

ـ الشيخُ صالحٌ معروفٌ بجمالِ الخَطِّ في كتاباتِه ، وجمالِ اللفظِ في خِطاباتِه ... كما أن له أشعاراً بديعةً أيضاً ... ماذا يُريد ؟

قلت :

ـ انّه يُسَلِّمُ عليكَ ، ويرغبُ بملاقاتِكَ عند عينِ الوَرّاقَة .

إبتسمَ أبي فَرِحاً وقال :

ـ الله الله ... إذنْ فقد قرَّرَ الشيخُ أن يبدأَ الثَّورَة .

ثمَّ سأَلني أن أَصِفَ له الرّجُلَ حامِلَ الرسالةِ ، فقلتُ :

ـ إنهُ طويلٌ عريضٌ ، ضخمٌ ، متينٌ ، كَفُّهُ مثلُ المِخْباطِ ... وثيابُهُ جبليَّة .

قال أبي :

ـ صوتُهُ القويُّ العميقُ يوحي بذلك .

ومن ذلكَ اليوم صارَ العمُّ دِرْباس ، صديقَنا العزيز الذي يزورُنا بينَ الفترةِ والفترة . يأتينا في الليلِ متخَفِّياً مُتسَلِلاً ، فينقرُ بإصْبَعِهِ على خشبِ النافذةِ نقراتٍ موزونةٍ حَسْبَ إيقاعٍ مُعيَّن . فيستقبلُه أبي بفرحٍ ومودَّةٍ . ثم يذهبانِ معاً عند آذانِ الفَجْر . وفي الصباحِ نجدُ أبي في المسجدِ ، ويكونُ العمُّ دِرْباسٌ قد « سافرَ برعايةِ الله مُحَّملاً بالأغراض » حسب تعبير أبي . وكنتُ أعرفُ أنَّ « الأغراضّ » تعني الأسلحَة والذخائر .

سنتانِ والرجلُ ينقلُ « الأغراضَ » إلى ثُوّارِنا في الجَبل . أليس عجيباً مجيئُهُ في هذه الليلةِ العصيبةْ ؟ في العتْمَةِ ، عندَ عَتَبَةِ البابِ ، سمعتُ صوت أمّي تقول :

ـ تَفضَّلْ ...

ودخلَ العمُّ دِرْباس .
لكنّه لم يكنْ يحمِلُ سلَّةَ هَبُّول .

دخلَ علينا العمُّ دِرْباس قَلِقاً مضطَرِباً وعانقَ أبي بلَهْفَةٍ وقال :



- كيف تبقى في المدينةِ يا شيخُ درويش ؟ كيف نَجَوْتَ من الإعتقالِ مع إبنِ الجلاغي ورفاقِهِ المَيامين ؟ لقد انشغلَ بالُنا عليكَ كثيراً . يجبُ أن تغادِرَ المدينةَ بأسرعِ وقت .

قالت أمّي :

- إنْبَرى لساني وأنا أحاولُ أنْ أقنِعَهُ بهذا . فالجواسيسُ يبحثونَ عنه حتماً . والطاغيةُ « مايك » سينفِّذُ الإعداماتَ الجائرَة .

قالَ أبي :

- لا تُعَذِّبوا أنفسَكم ، لن أغادِرَ حَ .

فقلتُ :

- اذن نُخْبِئُكَ في بيتٍ ، بِحارَةِ عَمَّتي أمَّ خالد . هناكَ ، عندَ طلعَةِ الحَريري مغائِرُ كثيرةٌ في اغلبِ ا . وهي مغائِرُ عَميقَة .

فقال أبي :

- يا محمود إن عباءَةَ عَمِّكَ درباس مُبَلَّلة بماءِ المَطر . لو عَصرتَها لملأَتْ سطلاً . وأنتِ يا أم محمود ألَمْ تشعلِي النارَ حتّى الآن ؟

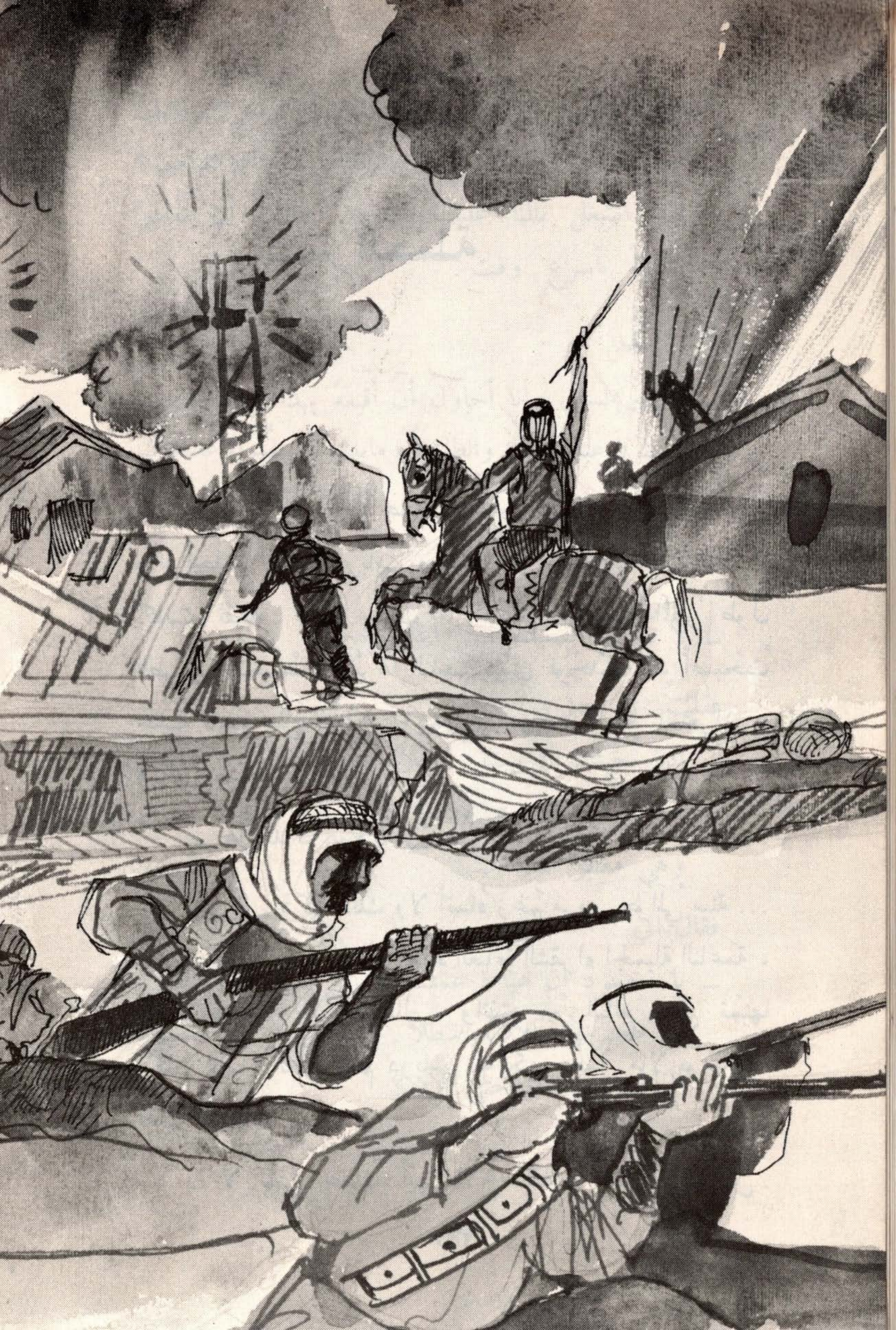
كسر الحملة

خرجت أمّي إلى صحنِ الدارِ لتُشْعِلَ مَوْقِدَ الفَحْمِ . وأنا أخذتُ عباءَةَ درباس وعلّقْتُها على مِسْمارٍ خلفَ الباب . كانت ثقيلةً . ربمّا بسببِ ما امتصّتْهُ من ماءِ المطرِ طولَ الطريق . تَحَسَّسْتُ وَبْرَها الناعِمَ بيدي فوجدْتُها قد أصبحَتْ خَشِنَةً قاسية مثلَ الدِّرْع . ويبدو أن درباساً لاحظَ استغرابي ، فسألَني مُداعِباً :

– هل تذكُرُ يومَ اشترَيْناها معاً يا محمود ؟

نعم إنّي أذكرُ ذلكَ ولا أنساهُ رغمَ مرورِ حواليْ سنة ... يومَها كان درباسُ مُعجَباً بهذهِ العباءةِ الشقراءِ الجميلةِ الناعمَة ، المصنوعةِ من وَبرِ الجِمَال . واتفقَ مع البائعِ على ثمَنِها وكان غالياً . لكنَّ العمَّ درباس لم يكنْ يحملُ مالاً يومَذاك . فقالَ لهُ البائِع :

– لا بأسَ عليكّ أيّها الأخُ القادِمُ إلينا من الجّبَلِ .





سَأمْهِلُكَ حتى موعِدِ « كَسْرِ الحَمْلَةِ » وبعدَ ذلكَ تفيني المبلغَ .

والعجيبُ أنّ العَمَّ درباس إشترى يومَذاك أشياءَ كثيرةً من دكاكينَ مختلفةٍ ، وكانَ كلُّ بائعٍ يمْهِلُه في الثَّمنِ إلى موعدِ « كسرِ الحملةِ » . لذلكَ سأَلتُ أبي :

ـ ماذا يعني « كَسْرُ الحملَةِ » ؟ ..

قال أبي :

ـ شعبُنا يا وَلدي رفضَ وجودَ المستعمرينَ الأجانبِ في بلادِنا . الناسُ قاموا بثوراتٍ باسلةٍ لطَرْدِهم ... منها ثورةُ الشيخ صالح العلي في الجبل الغربيّ . المستعمرونَ أرادوا إخمادَ هذهِ الثورة ، فَوَجَّهوا إلى الجبل حملةً عسكريةً فيها سياراتٌ مصفّحةٌ ومدافعُ وجنودٌ أجانبٌ كثيرون .. غير أنّ مجاهدِينا الأبطالَ ، كَسَروا الحملةَ وشَتَّتوا عساكرَها وغَنَموا ما كان فيها من أسلحةٍ وذخائر . هذا شيُّ طبيعيٌ ياولدي . فنحنُ أقوى منهم ومن أسلِحتهم الحديثةِ والكَثيرة . أتدري لماذا نحنُ أقوى منهم ؟ لأننا أصحابُ حَقٍّ ، ولأَنّنا نقاتلُ في أرضِنا . بينما هم غرباءُ ومُعْتَدون ... ثم صارَتْ عبارةُ « كَسْر الحملَةِ » تُسْمَعُ كثيراً عندنا في منطقةِ حماة . خصوصاً في الأسواق . فالفلاحّونَ

الجبليُّونَ يشترون ثياباً وأقمشةً وبضائعَ ، ويَسْتَمْهِلونَ الباعةَ في دفعِ الثَّمنِ إلى ما بعدِ كسرِ الحَمْلَة . والباعةُ يُوافقون طبعاً . لأنَّ كسرَ الحملاتِ صارَ عادةً . وخلالَ السنتين الماضيتين لم تتوجَّهْ حملةٌ عسكريةٌ إلى الجبلِ إلّا كَسَرها ثُوّارُنا مهما كانت كبيرة . وهذا ما أغاظَ المستعمرينَ وأثارَ جنونَهم حتى اعتقلوا الرجالَ السبعةَ ، بتهمةِ أنّهم يُزَوِّدون ثُوّارَ الجبَلِ بالسِّلاح . وحَكموا عليهم بالإعدامِ ظُلْماً . والتنفيذُ سيكونُ في الصَّباح .

ولهذا ، فنحنُ قَلِقونَ على حياةِ أبي . تُرى هل سَيَرْضَخُ لتوَسُّلاتِنافيذهبُ ويختبىءُ ؟ !

أعدَّت أمّي طعامَ الإفطارِ . جلبَتْ في طبَقِ القَشِّ صحنَ دِبْسٍ ، وبيضاً مَقليّاً بالسَّمْنِ الحموي اللذيذ ، ولَبَناً وخبزَ تنُّور . ثم عادت إلى مَوْقِدِ الحطَبِ الذي تحتَ الدَّرجِ ، لتجلبَ إبريقَ الشاي أيضاً . فإفطارُنا اليومَ سَخِيٌّ لأنّ عندنا ضيفاً عزيزاً ...

الزائـــدة

لكنَّ ضيفَنا العمَّ درباس لن يستطيعَ أن يأكلَ لُقْمَةً واحدةً ، فقد كان يرتجفُ تحتَ الغطاءِ وأسنانُهُ تَصْطَكُّ وهو يقول :

ـ « بردان ... بردان » .

مع أن حرارَتَهُ مرتفعةٌ والعرقُ يتصبَّبُ من جبهَتِه . فأُغَطِّيهِ بمزيدٍ من الأغطيَةِ . قال أبي :

ـ إنَّهُ مصابٌ بالحُمَّى .

فقالَتْ أمّي ، وقد وقفَتْ حزينَة :

ـ مسكين .. كم تحمَّلَ منَ المطرِ طولَ الطريقِ . كانَتْ كلُّ ثيابِهِ مبلَّلَةً بالماءِ .

قضيْتُ النهار قربَ فراشِ هذا الرجُلِ الرائعِ الذي أحبُّه كثيراً . والذي كنتُ أتَصَّوَرُهُ ـ لضخامَةِ جسمِهِ ـ أقوى من حصان . وها هو أمامي ضَعيفاً واهِناً يثيرُ العَطْفَ والحَنانَ ، بعد أنْ أنهكَتْهُ الحُمَّى .

وهكذا فإنّي لم أعدْ أعرفُ ماذا تَمَّ بشأنِ المعتقلين... هل نَفَّذَ المُجرمونَ حُكمَ الاعدامِ فيهم ؟

إنْقَطَعَ المطرُ. والشمسُ مُشرقَةٌ. لكنّني لم أسمع في الخارجِ أيّ صُراخٍ أو ضجيجٍ. إنّ ساحةَ العاصي التي تتوسَّطُ المدينةَ بعيدةٌ عن بيتِنا. ورُبَّما كان الناسُ كلُّهم هناكَ الآن. فهناكَ، في ساحةِ العاصي قرَّرَ الطاغيةُ «مايك» أن يُنفِّذ الحُكْمَ الجائِر.

نظرتُ إلى أبي، الحمدُ لله أنّه نَجَا من الإعتقال. أنا قَلِقٌ عليه كثيراً. وهو قلقٌ على درباس المريض. ودرباس جاءَ ليُنقِذَهُ. وأمي مُضطرِبَةٌ حائِرَة. لكنّها ما لبَثَتْ أن أن ارتدَتْ مِلاءَتَها السوداءَ وذهبَتْ تريدُ دُكَّانَ العطَّارِ الحاج مصطفى الشامي. فهذا الرجلُ ذو اللّحيةِ المصبوغَةِ بالحِنّاء، عندَهُ لكلِّ مَرَضٍ دَواء. قالَ لها أبي:

- إن وجدّتِ الدكّانَ مُغلَقةً فاذهبي إلى بيتِه.

ومن لا يعرفُ بيتَ هذا العطَّارِ الشهيرِ الذي عندهُ من مساحيقِ الأعشابِ المجفَّفَةِ، أدويةٌ لكلِّ الأمراض ؟

قال لها أبي:

- أخبري الحاج مصطفى أنّني أنا المصابُ بالحُمَّى.

كِدْتُ أنهضُ لأطلُبَ من أمي أن تسألَ عمَّا جرى

للمُعْتَقلين. لكنّني خَجِلْتُ ... فصَمَتُّ .. وقعَدْتُ أنتظرُ عودَتَها لتخبرَنا بما سمعَتْ. فهي لا بدَّ أنْ تسمعَ شيئاً من الأخبارِ عنهم.

سألني أبي :

- بِمَ تفكِّرُ يا محمود ؟

فوجئنا بأمي تعودُ بلا دَواء. ضربَتْ كفّاً بكّف وهي تقول :

- لم استَطِعْ الوصولَ إلى دكّانِ العطّارِ. فالزائدةُ أغرقَتْ شارعَ المَرَابِط.

صرخْتُ بفرحٍ عظيم :

- الزائدة ! هل صحيحٌ أن الزائدةَ جاءَتْ ؟.

ثمّ انتبهْتُ إلى نفسي فكتمتُ فرحتي وسكتُّ. ذلك لأنّنا نحنُ الأطفالَ نحبُّ الزائدة. وهي سيلٌ من مياهِ الأمطارِ يتدفَّقُ عبرَ الحقولِ من بعيد. إنّها سيلٌ قويٌّ يأتي من بعيدٍ جداً، يقالُ: من الجبلِ ذاتِه. فيدخلُ المدينةَ بكلِّ ما يحويهِ من أتربَةٍ ووحولٍ، ويحيلُ شارعَ المَرَابِطِ إلى ما يشبهُ النهر.

ونحنُ الأطفالُ نجدُ متعةً كُبْرى في الخَوْضِ بمياهِ الزائدة. فنجتازُ شارعَ المَرَابِطِ من رصيفٍ إلى رصيف. ويُبْهِجُنا الشعورُ بأنّ الشارعَ قد صارَ نهراً مياهُهُ الحمراءُ

غيرُ عميقةٍ ، لكنْ متدفِّقةٌ سريعة . ويظلُّ هذا النهرُ الظريفُ يوماً أو يومين . وعلينا نحنُ الأطفالَ أن نغتَنِمَ هذهِ الفرصةَ النادرةَ فنلعبَ ونمرحَ ونضحكَ . نُشَمِّرُ ثيابنا حتى الخُصْرِ ونَخُوض . ونضحكُ على اللذين يتعَثَّرون فيتبلَّلُون بمياهِ السَّيل . وقد يُثيرُ فضولَنا منظرُ الكبارِ الذين يعملونَ حمَّالينَ في هذا اليوم فقط ، فينقلونَ الناسَ على ظهورِهم من رصيفٍ إلى رصيف . ونَظلُّ طولَ الوقت نغّني :

جايْ جايْ يا أمَّ العِجْيان .. لاسقيكِ سُكَّرْ وشايْ .

إنّهُ إلى حدٍ ما يومُ عطلةٍ أو عيد . فبِحُجَّةِ « الزائدة » نَدَّعي أنَّ الوصولَ إلى جامعِ الأربعينَ مستحيلٌ . وهناك في الجامعِ ينتظرُ معلِّمُنا الشيخُ « باكير » وعصاهُ . إنّه يعلِّمُنا الفِقْهَ والقواعدَ وأشعارَ القُدَماء . لكنَّهُ لن يعلِّمَنا شيئاً في يومِ الزائدة . وفي اليومِ التالي يضعفُ سيلُ الزائدةِ تدريجياً ، فَنَهِمُّ بأنْ نمسِكَ بهِ حتى لا يذهب . لذلكَ نبني سدوداً صغيرةً من الاحجارِ والطينِ ، على جانِبَيْ الشارعِ المُنْخَفِضَيْن ، لعلَّنا نحجُزُ المياهَ أطولَ مدَّة ، حتى لو كان ارتفاعُ السدِّ لا يزيدُ عن شِبْرٍ واحد . لكنّ الزائدةَ لا تلبثُ أن تتلاشى نِهائياً . وشارعُ المَرابِطِ يصبحُ مغسولاً تماماً ، لكنّ احجارَ بلاطِهِ السوداءَ ، تبدو متميِّزةً عن بعضِها بأخاديدَ واضحةٍ . إذنْ فقد انتهَتْ فرصةُ اللعبِ الجميلةُ ، وعلى كلٍّ مِنّا أن يُعَلِّقَ

كيسَ كُتبهِ على كتفِه ويتوجَّهَ إلى الشيخِ « باكير » . والويلُ لمن يفوتُه الدرس ...

كان العمُّ درباس لا يزالُ يُعاني من نوباتِ الحُمَّى . فقال أبي :

ـ الا تزالُ تفكّرُ بالزائدةِ يا محمود ؟

● هل تأمرني بشيء يا أبي ؟

ـ سَلْ عن جارِنا حسين العتّال ، إن كان في بيتهِ فليذهَبْ ليجلِبَ الدواء . قُلْ له : أبي محتاجُ لدواءٍ يُعالِجُ الحُمَّى .

كان أبي مُعْجَباً بابنِ جيرانِنا حسين العتّال ، وكان يقولُ لي دائماً :

« حين تصبحُ شابّاً أريدُكَ أن تصبِحَ مثلَهُ شهْماً شجاعاً ، تُحِبُّ الخيرَ لكلِّ الناسِ وتُساعِدُ المُحتاجين وتخدُمُ جيرانَكَ في سبيلِ الخير » .



اين يعيش المجاهدون

وبفضلِ حسين العتّال تمَّ إحضارُ الدَواء من عندِ العَطّار. فقامَتْ أمي تَنْقَعُ تلكَ الأعشابَ اليابسةَ بالماء، بعد أن سحَقَتْها بالهاوِنِ. ثمّ غَلَتْها على النارِ مدَّة. أمّا أبي فقد هدأَتْ نفسُه وجلسَ يتلو آياتٍ من القُرآنِ الكريم. وصارَ عليَّ أن أُسقي العمَّ درباس هذا الدواء. كنتُ أُقَدِّمُ لهُ كأسَ الدواءِ فيشربُ الجرعَةَ مُكْرَهاً ويقول:

ـ «إنّه مُرٌّ ... مُرٌّ جداً ...»

ثمّ ما لَبِثَ أن نامَ وغفا. وبعد ساعةٍ قلتُ لأبي:

ـ إنّه ينامُ مستريحاً. أسنانُهُ ما عادت تَصْطُكّ.

فقال:

ـ الحمدُ لله.

وما أن حلَّ المساءُ، حتى كان مريضُنا العزيزُ قد أفاقَ واتكأَ على الوسادةِ في فراشِهِ، وعادَتْ إليه بشاشَتُهُ، ففرِحْتُ كثيراً ... سألني:

ـ ألا تزالُ راغِباً بمرافقتي إلى الجبل؟

● أهوَ بعيدٌ ؟

ـ مسيرةُ يومين أو ثلاثة . إذا كان مركوبْكَ بغلةً نشيطة .

● بغلةٌ ! ؟ .. لماذا بغلةٌ لا فرسٌ مثلاً ؟

ـ لأنّ البغالَ أصلحُ الحيواناتِ للتنقُّلِ في الجبال . فهي تمشي صاعدةً نازلةً بين الصخورِ لا تَزِلُّ أبداً ولا تتعثَّرُ .

● وزعيمكم الشيخُ صالحُ العلي ، هل عندَهُ بغلةٌ أيضاً ؟

آنذاكَ سَمِعْنا صوتَ أبي يضحكُ ويقول :

ـ سامحكَ اللهُ يا ولدي . رجلٌ عظيمٌ مثل هذا البطل ، جديرٌ بأنْ يركبَ أحسنَ فرسٍ عربيةٍ أصيلة .

قالَ العمُّ درباس :

ـ لو أنّكَ زُرْتَ قريةَ « المُرَيْقِبْ » ، حيثُ مَقَرُّ قيادةِ الشيخ الثائر ، لوجدْتَ مئاتٍ من الخيول والبغال . أتدري لماذا ؟ لأن عدَدَ المجاهدينَ في الجبلِ اليوم ، صارَ أكثرَ من عشرةِ آلاف . اكثرهُم مشاةٌ طبعاً . وهم مُوَزَّعونَ في مختلفِ انحاءِ الجبل . أتدري يا محمود ؟ في البدايةِ عندما اشْتَعَلَتِ الثورةُ كان عَددُنا قليلاً . لكنْ كُلّما مرَّ يومٌ يتحققُ نصرٌ وتزدادُ الآمالُ ويتضاعفُ عددُ المجاهدينَ الآتينَ من مختلفِ انحاءِ سُوريا وفلسطين .

في الطريق الى الجبل

في تلكَ اللحظةِ ، دخلَتْ أمي مضطربةً خائفةً وهي تَقول :

ـ إنَّ في الزُّقاقِ ثلاثةُ عساكرَ أجانب يُحاولون أن يعرفوا من الجيرانِ عُنوانَ بيتِنا .

خرجْتُ إلى الشارعِ لأستَطْلِعَ الأمرَ ، فأخبرني الجيرانُ أنّ العساكرَ قد ذهبوا . وحينَ رجعْتُ وأخبرْتُ أبي بذلكَ قال :

ـ لكنَّهُم سيعودونَ مرّةً ثانية للبحثِ عنّا .

فقالَ العمُّ درباس :

ـ إذن علينا أن نغادِرَ المدينةَ ونرحل .

سأله أبي مستغرِباً :

ـ نَرْحَلُ ؟ إلى اين نرحلُ ؟ ...

أجابَهُ درباس :

ـ إلى الجبلِ طبعاً . نُسورُ الجوِّ لا يمكنُ أن تطالَكَ هناك .

فقلتُ مُسْتَفْهِماً :

ـ وأنا ؟ هل أذهبُ معكم ؟ ... أحبُّ أن أعيشَ مع المُجاهِدين وأتعلَّمَ منهم كيفَ أكْسُرُ الحَمْلَةُ .

فَرِحْتُ كثيراً عندما وافقَ أبي على الفكرةِ . غير أنّ أمي اشترطَتْ عليَّ أن أرتديَ ثياباً كثيرةً . قالت :

ـ الجبلُ باردٌ . والطقسُ في الأماكنِ العاليةِ يكونُ دائماً ابردَ من الطقسِ في المناطقِ السهليةِ أو المنخفضةِ ومع أنَّنا الآن في بداياتِ الربيعِ فالجبلُ قد تكونُ فيه ثُلوج .

ثمَّ صرَّتْ لي صِرَّةً كبيرةً فيها ثيابٌ وكنزةُ صوفٍ وفَرْوَتي القصيرةُ ، ولفَّتْ رأسي بحطَّةٍ بيضاءَ ، بحيثُ لم يعد يظهرُ من وجهي إلّا عَيْناي . وأوصَتْني أن لا أرفعَ طاقيَّةَ الصوفِ عن رأسي أبداً . ثمّ قبَّلَتْني مُوَدِّعةً وهي تقول :

ـ إعْتَنِ بأبيكَ يا محمود واخدِمْهُ ليلاً نهاراً ... لا تُفارِقْهُ أبداً ... كانَ اللهُ معكُم .

غادَرْنا المدينةَ في الليل . كان القمرُ بدراً والطريقُ واضحةً رغمَ العتمةِ ... وكنتُ أمشي بجانبِ دِرْباس مُمْسِكاً

بكفِّهِ الكبيرةِ الخشِنَة ، وفي يدي الثانية كنتُ أجُرُّ رَسَنَ حِمارةِ أبي النشيطة . ولشِدَّةِ فرَحي لم أشعرْ بأيٍّ تعب . ولكنَّ درباس قالَ لي بعد أن مشَيْنا مسافةً :

ـ حين تتعَبُ تركبُ مع أبيك .

فسألتُهُ :

ـ وأنتَ .

قال :

ـ حينَ نصلُ أولَ قريةٍ نأخذُ بغلَتي التي أودَعْتُها عندَ صديقٍ هناك .

لم يعترِضْنا أحدٌ في الطريق . ربمّا لأنّ درباس أخذَنا من دُروبٍ فرعيةٍ ، يبدو لي ـ رغمَ عتمةِ الليل ـ أنهُ يعرفُها شِبْراً شبرا .

سألتُهُ ونحنُ نمشي :

ـ هل معكَ سِلاح .

فضحِكَ وقال :

ـ ماذا ؟ ... هل بَدأَ الخوفُ يتسرَّبُ إلى قلبِك ؟ ..

فقلتُ :

ـ لستُ خائفاً . فنحن قد نجَوْنا من العساكرِ وصرْنا بعيدينَ عن المدينَة . لكن ماذا نفعلُ لو اعتَرَضَنا

ذِئبٌ أو ضَبْعٌ مثلاً ؟ ..

قال :

ـ نَقْتُلُه .

● كيف نقتُلُه ونحنُ لا نحمِلُ سِلاحاً ؟ ..

ـ أنا أريدُ أن اسمعَ الجوابَ مِنْك .

● آخذُ عكّازَ أبي وأقاتِلُ بهِ الذئب . فعكّازُ أبي من خشبِ السنديانِ القاسي المَتين . لو أصبْتُ به الذِئبَ في جُمْجُمَتِهِ قُتِلَ حَتماً .

ـ أحسنتَ يا محمود ... فهذا صحيح .

آنذاكَ سألَنا أبي :

ـ ألا تزالُ تلْكَ القريةُ بعيدة ؟

أجابه درباس :

ـ لم يبقَ إلّا القليل .

فقال أبي :

ـ على كلِّ حالٍ ، إنْ اعترَضَكم وحشٌ فإنّ معي ، في هذا الخُرْجِ بدلاً من المُسَدَّسِ الواحدِ مسدَّسين .

أدهشني ذكاءُ أبي . فقد كنتُ أظُنُّ أنّ الخرجَ الذي

يتدلَّى على جانبَيْ حمارتِنا « الغندورة » ، ليسَ فيهِ إلّا زوّادَةُ الطعامِ وصرَّةُ الثيابِ . فقلتُ لنفسي :

« يا محمود ما دامَ أبوكَ ـ وهو المحرومُ من نعمةِ البصرِ ـ جريئاً قويَّ الجنانِ إلى هذا الحدِّ ، فأحرى بِكَ أن تكونَ مثلَهُ شُجاعاً بعيدَ النظرِ تحسِبُ لكلِّ شيءٍ حسابَه » .

وهكذا وجدتُ نفسي أقول :

ـ أشتهي أن يعترضَنا ضبعٌ في هذا الليلِ ، سأريكُم كيفَ أقتلُه ...

فضحك أبي ودرباس معاً .

واصلنا المسيرَ . وبدا لي أنّ هذا الطريقَ لن ينتَهي .



درباس مجاهد

فجأةً قالَ درباس :

ـ وصلْنا القريةَ . إنتَظِروني هُنا ريثمَا أجلبُ البغلّة .

وتركنا عندَ مَدخَلِ القريةِ وذهب . فقلت لأبي الثابتِ في وضعهِ على ظَهْرِ الحمارةِ البيضاء :

ـ يَبدو لي أنّ الدواءَ قد نفعَ درباس كثيراً حتى شِفيَ بسرعة .

قال أبي :

ـ لا تغلَطْ يا محمود .. رُبَّما كان درباس قد استَفادَ من الدواء ... غير أنّ شفاءَهُ الحقيقيَّ تمَّ بفَضْلِ قوَّةِ إرادتِهِ وإصرارِه على قهرِ المَرض . الصُّمودُ يا ولَدي ... الصُّمودُ ... وصلابَةُ العَزيمةِ ، وإيمانُ الإنسانِ بقدرَتِه على الفوزِ ... كلُّ ذلكَ يَفعلُ فِعلَهُ العجيبَ في النَّفْسِ ، فينتصِرُ الإنسانُ على المرضِ ، وعلى الخوفِ ، وعلى الاعداءِ ... درباس لم يَنْجُ بعد من نَوْباتِ الحُمَّى ، ولكنَّه ضغطَ على نفسِه

وتحاملَ على مرضهِ ، ليقومَ بهذه التَّضحيَةِ في سبيلِ إنقاذِنا من كارثةٍ كانَتْ مُحَتَّمةً ... وهذهِ بُطولة .

جاءَ العمُّ درباس راكباً بغلتَهُ ، فسألتُهُ بعدَ أنْ ركبْتُ خلفَه :

ـ هل تشعُرُ بتعَبٍ من آثارِ المَرض ؟

قال :

ـ خيرٌ لنا أنْ نَغُذَّ السيرَ حتى نصِلَ إلى الجبلِ . وهناكَ نستريح .

وهكذا واصلْنا السيرَ . أنا ودرباس راكبَيْنَ على البغلةِ ، وحمارَةُ أبي تتبَعُنا ، والطُّرقاتُ أكثرُها مَوحِلٌ بسببِ الأمطار . وكنَّا نستريحُ أحياناً في بعضِ القُرى التي نمرُّ بها . فيحيطُنا الفلاحونَ بالحَفاوَةِ والعِنايَةِ والتكْريم . رُبَّما لأنَّهم حَسْبَ رأيِ أبي ، : « يُحِبُّونَ المُجاهدينَ ويكَرِّمون كُلَّ إنسانٍ يُؤَيِّدُ المُجاهدينَ ويُسانِدُهم » .

وذاتَ مرَّةٍ ، توَّقفْنا لنستريحَ في مُنعطَفٍ بالطريقِ يُطِلُّ على وادٍ عَميق .. فجلسْتُ وأبي على صخرةٍ ، بينما أنزلَ درباس الخرْجَ عن ظهرِ « الغندورة » ، كما أنزلَ عنها السِّرجَ ، ووضعَ عَلَفاً لها ولبغلَتِه . ولا أدري كيف لَمحْتُ أرْنباً يركضُ أمامنا ، فصرَخْتُ بابْتِهاج :

ـ أرنبٌ ... أرنبٌ ...

فضحِكَ أبي وقالَ ساخراً :

ـ تَشَرَّفْنا ... ماذا تُريدُ أن نصنعَ بِه ؟

قلتُ :

ـ نصطادُهُ ... أينَ المُسدَّس ؟

ومدَدْتُ يَدي إلى الخرجِ لأسحبَ أحدَ المسدّسين .. كان الأرنَبُ قد ذهبَ بعيداً . ولكنّني أستطيعُ أن ألحقَ بهِ وأطلقُ النارَ : بُو ...

غيرَ أنّ العمَّ درباس وضعَ يدَهُ على يَدي قائِلاً :

ـ لا يا محمود .. إنْ أطلقْتَ النارَ هُنا فإنَّك تعرِّضُنا للخطَر .. إذ رُبَّما سمعَتِ الطَّلَقَةُ دوريةٌ من عساكرِ العدوّ فيُلاحِقُنا أفرادُها .. وبذلك قَدْ لا نصلُ إلى الجبل .

قال أبي :

ـ هذا صحيحٌ . فالمجاهِدُ ينبَغي أنْ يظلَّ مُتنبِّهاً واعِياً حَذِراً .. أنتَ شجاعٌ يا محمود . وأنتَ تريدُ أنْ تتدرَّب على الرمايةِ وإصابةِ الهدَف . ولكِنْ هذا لا يَكفي . بل ينبغي أن تَظَّل حَذِراً ويَقِظاً ومُتنبِّهاً .

فقالَ درباس لأبي :

ـ ما أجملَ كلامَك ؟ ! ..

أحاديث الطريق

واصَلْنا السَّيرَ . ولاحَظْتُ أن الطرقاتِ أصبَحَتْ صاعِدَةً وَوعِرَة . فقلْتُ :

ـ يبدو أنَّنا وصلنا الجَبل .

فقال درباس :

ـ أصَبْتَ .. انظُرْ إلى تلكَ القلعةِ العظيمةِ هناكَ . إنّها قلعَةُ مِصْياف . ومِصْياف أوَّلُ بلدةٍ في الجبَل .

كانَتْ قلعةً عظيمةً شاهقةً ، أسوارُها الصخريَّةُ عاليةٌ . قلتُ :

ـ لماذا لا نزورُها ؟

قالَ أبي :

ـ لأنَّ عساكرَ العدوِّ موجودونَ فيها . لكنَّهم لم يحتلُّوها إلّا بعدَ أنْ دفَعوا الثَّمنَ مئاتِ القتلى ، في معركةٍ من أشهرِ المعارِك .

سألْتُه :

ـ هل تستطيعُ أن تَعُدَّ لي معارِكِ الشيخِ صالح العلي بالتَرْتيب ؟

قال :

ـ سأذكُر لكَ شيئاً عن أوَّلِ ثلاثِ معارِكَ خاضَها هذا البطلُ العربي .. في أولِ معركةٍ قربَ قريةِ نِيحا ، سنة ١٩١٨ ، أنزلَ ثُوَّارُنا بالعدوِّ خَسائِرَ بلغتْ ، خمساً وثلاثينَ قتيـلاً وعشراتٍ مـن الجَرْحى والأَسرى .. وفي المعركةِ الثانيةِ التي دارَتْ في قرية الشيخ بَدْر ، في شباط (فبراير) ١٩١٨ ، خَسِرَ العدوُّ عشرينَ قتيلاً وكثيراً من الجَرْحى والأسرى ، وعَجزَ عن احْتِلالِ القريةِ . فعادَ بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ لاحْتلالِها ، فاشتعلَتْ نيرانُ معركةٍ رهيبةٍ دامت من الظُّهرِ حتى منتصفِ الليل . وتمَّ تدميرُ حملةِ المُعتدينَ تدميراً . وحقَّقَ ثُوَّارنا بقيادةِ الشيخِ صالح نصراً حاسما ..

قالَ درباس :

ـ إسمحوا لي أن أخْبِرَكم عن المعركةِ الرابعةِ كما شَهَدْتُها بنفسي ، فأنا لا أنسى ذلك اليوم أبداً : ١٥ حزيران (يونيو) ١٩١٩ . كُنَّا مُرَابطينَ في أعالي الجبلِ المطلَّةِ على وادي « وَرْوَرْ » ، ننتَظِرُ وصولَ حملةٍ فرنسيةٍ ، قالوا إنّهم أرسلوها لتُنْهي

الثَّورة .

وكانتْ تعليماتُ قائِدنا الشيخِ صالح ، أن لا نُطْلِقَ النارَ إلّا بعد أن يُلَوِّحَ لنا بعلَمِ الثّورة ، وكان قطعةً من القماشِ الأخضرِ يتوَسَّطُها هِلالٌ ونَجْمَة .. إنْتَظَرْنا .... صَبَرْنا ... طلائِعُ جيشِ العدوِّ وصلتْ وها هيَ تجتازُ وادي وَرْوَرْ الرَّهيب . سَيّاراتٌ ومصفَّحاتٌ كثيرة ، ومَدافعُ ، وعساكرُ راكبونَ على البغال ، ومُشاةٌ .. أعدادُهم كبيرةٌ واسلحتُهم كثيرةٌ . وكانَ في الجوِّ طائِرَتا استِطْلاعٍ تُحَوِّمان باستمرار ..

طلائعُ ذلكَ الجيشِ المعتدي ، ملأَتْ جَنَباتِ الوادي الفَسيحةِ وهي تتخايَلُ في مشيتِها ، كأنّها ذاهبةٌ إلى احْتِفال .. ونحنُ جاثِمونَ وراءَ الصخورِ في أعالي الجبالِ وقد أحَطْنا بالوادي الرهيب من كلِّ جهة . ويَدُ كلٍّ منّا على زنادِ بُندُقِيَتِهِ وهو يتطلَّعُ إلى مَكانِ الرّايةِ ... وفجأَةً رُفعَتِ الرايةُ الخضراءُ ... فارتفعَتْ معها أصواتُ التكبيرِ والتهليلِ . وكأنَّ السماءَ قد فتحتْ أبوابَ جهنَّمَ على العدوّ ... وكأنَّ الأرضُ صارَتْ جَحيماً تحت أقدامِه . وانهمَر الرصاصُ من كلِّ مكانٍ وانهالَ على الجيشِ الزاحفِ ، وكأنَّ

سيلاً زاخراً مندفِعاً قد جرفَ كلَّ ما في طريقِهِ من بغالٍ يقودُها الرجالُ، ورجالٍ تدوسُهُمُ البِغالُ. واختلطَ الحابِلُ بالنابِلِ. أمّا مدفعيةُ العدوِّ فقد طاشَتْ، وصارَت تطلِقُ القنابِلَ على غير هُدىً... وإلى غيرِ هدَف... وملأَتْ سحُبُ الدُّخانِ جنباتِ الوادي. وأمر الشيخُ صالحٌ فريقاً من الثُّوّار أن ينتقلوا إلى مُؤَخَّرةِ جيشِ العدوِّ فيُحْكِموا عليهِ الحصار..

وهكذا أطبقنا عليهِ من كلّ جانِبٍ وأغرقْناهُ بوابلٍ من الرّصاصِ المنهمِرِ وكأنَّه المطرُ. واستمرَّتِ المعركةُ حتى منتصفِ الليل، ثمَّ انجلَتْ عن سقوطِ حوالي ثمانِمائةِ قتيلٍ وجريحٍ من العدوِّ، وأسرى كثيرينَ، وسياراتٍ ومصفَّحاتٍ محترقةٍ ومعطوبَة. وكانت جَثثُ قتلاهُم مُختلِطَةً بأشلاءِ بغالِهم. وَغِنْمنا كمياتٍ هائلةً من الأسلحةِ والذّخائرِ تكفي المُجاهدينَ فترةً طويلة. وكان النَّصرُ رائعاً مُبيناً، زَغْرَدَتْ لهُ العَذارى ورقصَ لهُ الرِّجال، وأُقيمَتْ مواكِبُ الأعراسِ والزّينَاتِ في سائرِ القُرى.

قُلتُ:

- لكنّني أريد أن أسألَ... المجاهدونَ قليلون وعساكرُ العدوِّ عديدون... المجاهدون ناسٌ عادِيُّون واسلحتُهم قليلةٌ وعتيقة، وأولئكَ عساكرُ محترفونَ مدرَّبُّون

وأسلحتُهم وفيرةٌ وجديدة .. فكيفَ استطَعْتم تحقيقَ ذلكَ الإنْتِصارِ العظيم ؟ ..

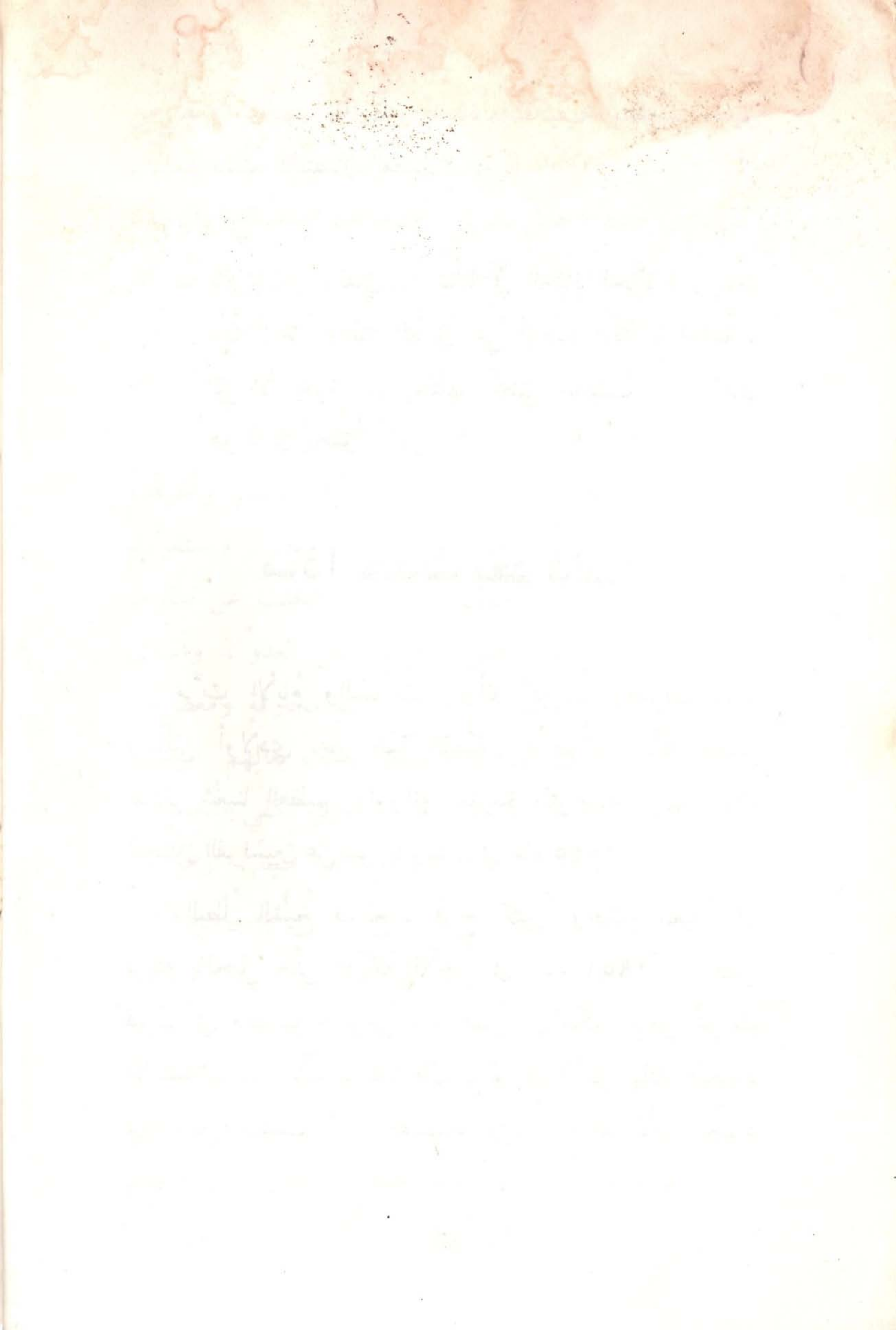
قال أبي :

- بالايمانِ يا ولدي .. إيمانُنا في الحياةِ الحرَّةِ ، وإيمانُنا بأنَّ أرضَ وطنِنا العربيّ هي أرضُنا المُقَدَّسَةُ الغاليةُ ، التي لا يجوزُ أن يُحْتلَّها أجنبيٌّ غاصِبٌ ... الإيمانُ هو الذي يُحَقِّقْ النّصر .

ماذا حدث بعد ذلك

مرَّتِ الأيامُ والسَّنوات . وأنا كبرتُ وصرتُ أبا ، وسألَني أولادي عن بقيّةِ القصَّة . فأخبَرْتُهم بأنهُ بِفَضْلِ نضالِ شعبِنا العظيمِ وثوراتهِ العديدةِ المتواصلة ، ثمَّ إجلاءُ المحتلِّينَ الفرنسيينَ عن سوريا ولبنان في عام ١٩٤٥ ...

والبطلُ الشيخُ صالح ، فَرِحَ كثيراً وعاشَ سعيداً في قريتهِ بالجبلِ حتّى أدرَكهُ الأجَلُ في سنة ١٩٥١ . ورفضَ قبولَ أيِّ منصبٍ حكوميٍّ ، ورفضَ أي مكسبٍ من ثمراتِ الإستقلال ، « لأنَّه - كما قال - لم يجاهِدْ كلَّ ذلك الجهاد في سبيلِ مَنْصِبٍ أوْ مَكْسَبٍ ، وإنَّما جاهَدَ لأنَّ الجِّهادَ واجبٌ ... » .





سلسلة "أنا أخبركم"

شخصيات عربية مشهورة أو مغمورة ، أسهمت في صنع التاريخ الحديث لأحد الأقطار العربية ... حركات شعبية حصلت في إحدى القرى أو المدن ، عبّر فيها السكان بعفوية عن مقاومتهم للمحتل الأجنبي وعن تأكيدهم لأصالتهم العربية .

أنا أخبركم ... بلسان أحد الذين عرفوا هولاء الأبطال ، أو الذين أسهموا في تلك الحركات ، أين ... ؟ كيف ... ؟ ومتى حصل ذلك ؟ ...

صدر من هذه السلسلة :

- رحلة الأهوال
- قِصّة انتصار حقيقي
- عِندما سرنا إلى الجبل ليلاً



الروّاد للنشر والتوزيع

بيروت . المنارة . شارع عبلا

بناية باركلين اوتيل . ألطابق الرابع

ص . ب : ١١٣/٥٢٠٦ ، تلفون : ٨٠٤٣٤٩

طباعة مؤسسة دار الريحاني ... ٣٠٤١١٤ ص. ب ١٣٥٣٧٨ بيروت - لبنان